ومن كلماتهم المشهورة اذ يصلون « ڪَلِف اللحن » وهي الامر من « مَسْكف » غيّر وبدّل اي لحّنهُ على غير نغمة

ومنها : « قُل هذه الحـأية » من « سَمْعُنا » مـاحة وهي صلاة طويلة دُعيت كذلك لانَّ المـاحة تُطلب بها من الله الفائز ومنها جملة الحاش « سَمْا » الم . وهي سبة الالام دعيت كذلك لتـألم السيد لهُ الجد فيها

ومنها الخـأم « سَمْأَمُا » الختام وهي قطعة تختم بها الصلوات وبها اختم مقـالتي هذه (ستأتي البقيّة)

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني

٦

وكان قصر المقدم رزق الله في اجمل موقع من لبنان بالقرب من منبت الارز القديم في وادي بشرّاي الذي يسبي الابصار بحسنهِ (٢ فهناك عيون باردة تتسلسل من الثلوج المكلّلة لهام الجبال القريبـة فتتفرّع الى جداول غزيرة تسقي تلك الاراضي الخضرة او تتجمّع الى احواض طبيعية في تجاويف الصخور . وهناك اشجار عظيمة تبسط اغصانها في كلّ جهةٍ وناحيةٍ فتارةً ترسلها الى بعيد وطوراً تسوق بها نحو السماء كانها اهرام من الخضرة

فتحتَ هذه القبة الناضرة تشيّدت منازل المدينة مرصوصةً بعضها فوق بعض على دارةٍ صغيرة وقد اشرفت عليها قُبَب الكنائس الكثيرة وقصر المقدّم وسائر قصور الامراء

---

١) ربَّ معترض يقول ان اكثر هـذه الكلمات تنطبق على اصولها العربية . . . فليعلم حرسهُ المولى ان الكلمات التي تطابق بعضها في هاتين اللغتين لا يحصرها عدٌّ مثل جهلهم قتل أحد اكل أحد اسر همهما قبض همهما مطر سما حي وغوغا سأ يربو على الالوف المؤلفة فلا يبعد ان تكون استعرضت كلٌّ من الاخرى والسيادة للاقدام وانا جمعت ما تلوّح وتلمّح لي انهُ اقرب لي السريانية منهُ الى العربية فان كنت اخطأتُ فدعو اهل العلم والادب اسبق والّا فالمرء مطالب بما عندهُ

٢) لبكيان في الشرق المسيحي

بني عنه. والى الشمال الشرقي صخور كلسية بيضاء قد انتصبت في الجو بهيئة عمودية ونُقرت فيها معابد ومحابس عديدة منقوش على ابوابها رسم الصليب المقدس (١ وابهج هذه المعابد واعظمها رونقاً كنيسة مار سركيس وهي كلها منقورة في الصخر (٢ وقد اغتنم القوم وجود نتوء خفيف في الصخر فبنوا بعض غرف يقيم فيها الان راهب من قانون الآباء الكرمليين. وفي القرن الخامس عشر كان فرا غريغون ورفيقهُ فرا فرنسيس (٣ قد اتخذا هذه الغرف نفسها محلاً للسكنى وقتما كانت الشؤون الرسولية لا تستدعيهما الى التجوال في لبنان

اما المقدَّم رزق الله فكان قد شيَّد قصراً فسيحاً في الطرف الغربي من بشرأي عند مدخل وادي قاديشا وكان الى جانبهِ من احدى الجهات منحدَر خفيف يضمّ الصخر الذي قام عليهِ القصر الى دارة الجبل ومن الجهة الاخرى كان لهُ سور عالٍ ينتهي بصخر عظيم منتصب عمودياً فوق هوَّة هائلة جدًّا. وقد عُني البناؤون ففتحوا للقصر في انحائهِ الاربعة طيقانًا وشبابيك تُطلّ عددَ الساعات على مناظر مختلفة الاشكال ومشاهد تفتن العين وتسبي البصر مثل هوَّة وادي قديشا وغابة الارز مع كثير من الحدائق والمروج النضرة

وكان اذا جاء الصيف انتشرت في تلك الانحاء مشاهد الخصب والريف فتتصل الاثمار بالقطاف والزروع بالدياس. واذا دنوت من ابواب المنازل المعلّقة في جانب الجبل رأيت الدوالي مشتبكةً على شجر السنديان والجوز ومرسلةً فوق الحاجزات والمعابر اقواساً من الخضرة

وكان للقصر المقدَّم باب مقبَّب يؤدي الى باحة داخلية وفوق الباب صورة اسد منقوش وهو شعار اتخذهُ الامراء في سوريَّة من عهد السلطان بيبرس (٤ واما الاسوار فقد بُنيت من حجارة ضخمة تضاهي حجارة الابنية التي شيَّدها الجبابرة القدماء. وكان في وسط الباحة المذكورة فسقيَّة من الرخام الابيض باربعة عمد من الحجر المانع اتوا بها من خراب احد الهياكل القريبة. وكانت هذه الباحة عادةً مجتمعاً للخيل والحمير والجمال. فالخيل

١) بروكارد والدويهي ٢) المشرق ٣. كتائس لبنان القديمة
٣) المشرق ١. فرا غريغون ولبنان
٤) راجع مجلة المجمع المصري Institut égyptien سنة ١٨٨٠ ص ٨٣ . والمشرق ٣ : ٢٠٣

الاصيلة المختصة بمشايخ الجبل تُربط وحدها في حلقات من الحديد مغروسة بالحيطان وكانت مزيَّنة بالسروج المذهبة والحلي الفضيَّة على رؤوسها واعناقها. والى جانبها تُربط خيل التجار الوافدين من طرابلس والبترون ثمَّ الحمير المختصة ببعض الرهبان وحول الفسقية تبرك الجمال وتتناول علفها من اكياس ملأى بالكرسنة تُفرش امامها ثم تأخذ في الاجترار رافعةً اعناقها الطويلة ومُسمعةً اصوات الجلاجل المعلقة فيها

وكان المكاريَّة والجمَّالة يجلسون بالقرب من دوابهم يتجاذبون اطراف الحديث او يلعبون بالمنقلة تقطيعاً لساعات الانتظار الطويلة وكانت امركة وقتئذٍ محجوبةً بنياهب الخفاء فلم تكن قد جادت على العالم بمنحة التبغ لاجل تدخينه في ساعات الفراغ

وقد شوهد اذ ذاك في احدى زوايا الباحة رجل غريب الحركات علاهُ الوسخ وركبتهُ القذارة الكريهة وكان لهُ انف احجن اشبه بالقوس وذؤابتان تتوسان ابدًا فوق صدغيه فكان كل من يراه يظنّ انهُ يهودي ويتقرَّى ظنّهُ بذلك اذ يعلم انهُ يُدعى نثنائيل. ولم يكن احد يعرف سبباً لاقامة هذا الرجل هناك الَّا انهُ قد سعى مرارًا في مواجهة الامير غير ان الامير كان يجاوب دائماً انهُ يكره مقابلة المرابين. ومع هذا فان المذكور لبث منتظرًا دون ان يظهر ملالةً او مساءةً من اقوال التهكُّم والاستهزاء التي يسمعها من المكاوية والخدم. وكان جامدًا ساكناً كالجارح من الطير يرصد الفرصة للانقضاض على الفريسة وفي مدَّة اقامتهِ الطويلة بباحة القصر لم يكن يغفل عن ملاحظة الواردين والذاهبين باهتمام لا مزيد عليهِ. وهذا كل ما كان في امكانهِ عملهُ لانَّ نظرهُ كان محجوبًا برواق يفصل هذه الباحة الاولى عن الباحة الثانية التي في اقصاها قام القصر الحاوي معاهد الامير وزق الله وأُسرتهُ

امَّا هندسة القصر المذكور فمتداخلة مختلطة فقد كانت فيهِ قناطرَ على النسق العربي القديم وحنايا على النسق الغوطي صنعها البنَّاؤون الافرنج الذين رمَّموهُ في مدة حروب الصليب. وكانت في واجهتهِ بعض افاريز ضاعت معها مساواة الخطوط وأُقيمت عليها رواشن رشيقة يتخيَّلها الناظر منتصبة في الهواء وقد ارتبط بعضها مع بعض بعمد صغيرة من الرخام الابيض. امَّا داخل القصر فكان عبارة عن قاعات فسيحة مبلطة بانواع مختلفة من المرمر وفوق القاعة الوسطى قبة من الزجاج الشفاف وبواسطة

الدار الواسعة تتصل كلّ اقسام هـذه البناية العظيمة الجامعة بين اوصاف قصر وقلعة ومتنزّه

٧

وكان أنّ الربيع في هـذه السنة وفد على اعالي لبنان قبل اوانهِ لان ريحًا حارة شرقيّة ما زالت تنفخ اياماً عديدة متوالية حتى اذابت الثلوج من وادي بشرّاي فبدأت الاشجار تكتسي باوراق واثمار واخذت شقائق النعمان النابتة على ضفاف النهر المتموّج تفتح كؤوسها مستقبلةً شمس اذار المنعشة وبخور مريم يزين الصخور والسطوح بوردهِ الجميل. وكانت الجبال القريبة تلمع ساطعةً وهي تتقطّع بين مسافة واخرى بُسُكَت كبيرة سوداء اعني بهـا اشجار الارز والعذر والشربين كانت قد القت عنها الكفن الابيض الذي اندفنت تحتهُ مدّة الشتاء بطولهِ

وكان القوم في قصر بشراي في حركة واضطراب لان السعـاة من رجّالةٍ وخيّالة كانوا بين دقيقة واخرى يخرجون منتشرين في الطُرق والشعاب المؤدية الى هذه المدينة الصغيرة. ولم يكن من سبب لهذه الحركة سوى الاب يوحنا الذي بلغهم خبر مجيئهِ منذ ايّام لكنّهُ لمّا ابطأ قلقت الافكار عليهِ فسار الخيالة فرقًا فرقًا يطلبونهُ حتى التقت بهِ كوكبة منهم عند زغرتا فاعادت احد افرادها على عجل لكي يبشر الامير بقرب من قد طالما توقّع قدومهُ

وكان ذاك النهار في قصر بشرّاي اشبه بيوم عيد بل اعظم فاستقبلوا الاب يوحنا بما لا مزيد عليهِ من التجلّة غير ان القادم بالنظر لما تحلّى بهِ من التواضع العميق والفضائل المسيحية الحقة التي سبق بيانهـا ودّ لو لم يحصل لهُ شيء من ذلك ولو كان في امكانهِ اجتنابهُ لما تأخر

ومن بعد وصولهِ صرف عدّة ايام في مداولات طويلة مع المقدّم رزق الله ولم يكن بينهما ثالث غير فرا غريغون وقد قرّر الثلاثة اتخاذ ما يلزم من التدابير الفعّالة منعًا لغارة البدعة اليعقوبيّة على الجبل. ثم ان الاب يوحنا وفرا غريغون أفهما المقدم رزق الله الذي كان حتى ذاك الاوان مترددًا ان وحدة الايمان هي اوكد واحسن وسيلة لحماية لبنان وانهُ اذا استولى الانقسام على العقول والضمائر لا يلبث ان يظهر اثرهُ في الخارج فيبذر في كل محلّ بذور الشقاق

ولقد ذهب هذا الكلام كل مذهب في عقل المقدم ورآهُ صوابًا لاسيّما وان الغاية التي كان يهتم بها في جميع اعماله واجراءاته هي ان يجعل الوحدة سائدة بين اللبنانيين جميعًا موارنة كانوا او ملكيين بنوع ان يصير الكل شعبًا واحدًا رغمًا عمّا بينهم من الاختلافات العرضيّة

والحق يقال ان هذه الاختلافات كانت في تلك الايام طفيفةً بالنسبة الى ايامنا الحاضرة لان الطائفتين كانت لهما لغة واحدة طقسيّة وهي السريانيّة فضلًا عن خروجهما من اصل واحد ارامي

غير انَّ المساعي في احكام عرى الوحدة كانت لسوء الحظ تلاقي المعارضات والمقاومات من قبل بطاركة القسطنطينيّة الذين كانوا يحاولون نشر لواء سلطتهم في سوريّة. فلاجل التوصل الى هذه الغاية رأوا انهُ لا يكفي إبعاد الملكيين عن الغربيين بل يجب ايضًا ابعادهم عن كل ما ليس لهُ اصل يوناني بحت ومن ثمَّ اعلنوا الحرب على اللغة السريانيّة في سوريّة وعلى ليتورجيّة القديس يعقوب التي عيبها الوحيد عندهم انها لم تكن مستعملة في القسطنطينيّة (١

وبينما كان البطاركة المذكورون ينسجون هذه الدسائس كان المقدم رزق الله يحرض الملكيين سكّان الكورة وسائر اخوانهم المنبثين في بلاد جبيل والبترون (٢ على ان يعترفوا بمجمع فلورنسة الحديث ويرسلوا وفدًا من قبلهم الى رومية

واحب المقدم رزق الله ان يقوي الامتزاج بين طوائف لبنان فعمد الى تزويج احد كبار اخصائهِ المسمّى زين مع وريثة احدى العائلات الملكيّة الوجيهة في لبنان وعرض هذا الخاطر على كلٍّ من فرا غريغوس والاب يوحنا فاستحسناهُ وحثّاهُ على اتمامهِ

غير انَّ المقدّم كان قلقًا من جراء تصرف ابن اخيهِ عبد المنعم الذي تظاهر بالميل الى ضلال اليعاقبة (٣ ووقف كحجر عثرة في سبيل سلطة عمهِ فخاف عمهُ عواقب مقاومتهِ واطلع الاب يوحنا على ما كان. فذهب الاب يوحنا الى عبد المنعم وكان عمهُ قد سبّاهُ مقدمًا لجبيل فوعدهُ هذا بقطع كل علاقة مع اليعقوبيّة وحلف لهُ على الاناجيل المقدسة انهُ يحافظ على الامانة لعمهِ وعلى ايمان اجداده (ستأتي البقيّة)

١) راجع في المشرق (٣ : ٢٧٣) شهادة تيودور بلسامون وغيره ٢) الدويهي ٢٠٧
٣) الدويهي